

من جلستُ إِلَيْهِ ذَاتِ يَوْمٍ وَشَخْصِيَّتِهِ الْحَيَاةُ لَا زَالَتْ تَمَثِّلُ أَمَامِي وَحَدِيثَهُ السَّلْسُ الْمُحْكَمُ مَا زَالَ يَسْكُنُ فِي مَخْيَلَتِي. إِنَّهُ عَامِلٌ بِسَيِطٍ نَحِيفٍ الْبَنِيهِ، لَا تَفَارِقُ شَفْتِيَّهُ ابْتِسَامَتِهِ الْخَفِيفَةُ الَّتِي أَلْفَهَا فِيهِ كُلُّ الَّذِينَ تَعْرَفُوا إِلَيْهِ، عَلَى شَعْرَهُ الْكَثِيفِ شَيْءٌ مِنَ الشَّيْبِ، وَبَدَتْ عَلَى جَبَنَيِ الْعَرِيضِ عَلَامَاتٍ كَفَافٍ مِنِ الْحَيَاةِ. وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ كَلَهُ لَا يَزَالَ يَتَمَتعُ بِطَاقَةٍ فَاعِلَّةٍ، نَشَأَ فِي أَسْرَهُ وَفِيرَةُ الْعِيَالِ شَحِيقَةُ الْمَالِ، وَلَمَّا لَمْ يَجْلِسْ كَثِيرًا عَلَى مَقَاعِدِ الدِّرَاسَةِ، وَتَمَكَّنَ مِنْ فَنُونِ الطَّلَاءِ، وَحَالَمَا أَنْهَى مَدَةُ التَّكْوينِ الْتَّحَقَّبُ بِسُوقِ التَّشْغِيلِ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْعَمَلِ بِحَمَاسٍ فَيَاضٍ، وَرَغْبَةٍ شَدِيدَةٍ فِي تَعْوِيضِ سَنَوَاتِ حِرْمانِهِ اخْتَارَ الْعَمَلِ الْحَرِّ الَّذِي يَتَمَتعُ فِيهِ بِالْإِسْتِقلَالِ: لَأَنَّ طَبَيْعَتِهِ لَا تَنْسَجُ مَعَ الْحَيَاةِ الْمَهْنِيَّةِ وَضَوَابِطِهَا الْعَدِيدَةِ، وَلَمْ تَكُنْ تَمَرِّ أَشْهَرٌ مَعْدُودَةٌ عَلَى مَارِسَتِهِ حِرْفَتِهِ حَتَّى ذَاعَ صَيْتُهُ، وَتَوَاتَرَتْ عَلَيْهِ عَرَوَضٌ شَتِّيَّةٌ فِي الْعَمَلِ. ثُمَّ تَعَهَّدَ بِإِنْجَازِهِ مُقَابِلًا لِأَجْرَةٍ مَنْاسِبَةٍ فِي غَيْرِ شَطَطٍ، وَعَلَى كَفَفِهِ سُلْطَانٌ يَتَهَادَى بِهِ كَانِيْ بِهِ يَتَرَفَّقُ بِشَيْءٍ رَفِيعٍ يَخْسِي عَلَيْهِ مِنْ أَثْرِ السَّقْوَطِ، وَحَالَمَا بَلَغَ بَنَاءَهُ بِالْجَوَارِ أَنْزَلَهُ بِعُنَيَّةِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى إِعْدَادِ الْأَخْلَاطِ الْكَافِيَّةِ، وَأَدَواتِ الطَّلَاءِ الْلَّازِمَةِ، وَتَارَةً أُخْرَى يَطْلِي الْجَدْرَانِ يَلْمِعُهَا تَلْمِيعًا، وَتَنَوَّعَتْ أَنْشِطَتِهِ إِلَى أَنْ أَخْذَ مِنْهُ التَّعَبُ مَأْخِذًا كَبِيرًا. عَنْهَا جَلَسْ أَرْضاً غَيْرَ بَعِيدٍ يَسْتَرْجِعُ أَنْفَاسَهُ، وَقَدْ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى جَدَارٍ مُولَّيَا وَجْهَهُ شَطَرَ سُلْطَانِهِ، قَصَدَتْهُ أَحْمَلَ إِلَيْهِ فَنْجَانَ شَايِ لِمَعْرِفَتِي بِعَشْقِهِ غَيْرِ الْمَحْدُودِ لِهَذَا الْمَشْرُوبِ الَّذِي يَعْدُهُ وَقَوْدًا يَسْتَمِدُ مِنْهُ طَاقَتِهِ فِي الْعَمَلِ، كَمَا يَعْدُهُ عَرَبُونَ مَحْبَبًا وَتَقْدِيرًا. سَأَلْتُهُ عَنْ سُرُّ عَلَاقَتِهِ بِسُلْطَانِهِ الَّتِي ظَلَّتْ قَائِمَةً عَلَى مَرْعُوقِهِ، وَلَمْ تَهَنَّزْ لِتَقْلِيبَاتِ الْعَهُودِ. وَقَالَ مُشَيرًا بِسَبَابِتِهِ: السَّلْمِيُّ هَذَا يَا بْنِي مَكَانَةٌ خَاصَّةٌ فِي نَفْسِي، وَمَسَاحَةٌ وَاسِعَةٌ فِي تَفْكِيرِي، فِي حَيَاتِي وَرَفِيقِي فِي دُرُوبِهَا الْمُتَشَعِّبَةِ. كَنْتُ حَرِيصًا عَلَى تَعَهِّدِهِ وَصِيَانَتِهِ وَحُسْنِ اسْتِعْمَالِهِ، فَلَمْ يَغُدْ بِي يَوْمًا، وَدَرَ عَلَيْهِ خَيْرًا عَمِيمًا، فَضُلِّلَ هَذَا السَّلْمِ اشْتَرِيتُ قَطْعَةً أَرْضَنِ، وَبَنَيَتْ عَلَيْهَا مَنْزَلًا مَحْتَرِمًا، وَهَكُنْدَأَ عَشَّتُ مَسْتُورَ الْحَالِ، فَيَنْتَالُ مِنِي الإِرْهَاقُ نِيلًا، وَأَنَامُ بِاللَّيلِ مَلِءُ جَفْنِي قَرِيرَ الْعَيْنِ هَانِئَ النَّفْسِ، لَا أَلُوي عَلَى شَيْءٍ غَيْرِ دَوَامِ هَذِهِ النَّعْمَةِ الَّتِي أَسْبَغَهَا اللَّهُ عَلَيَّ. وَمَعَ مُرُورِ الْأَيَّامِ وَالْأَعْوَامِ شَعَرْتُ بِعَاطِفَةٍ تَكْبُرُ فِي نَفْسِي، أَصْبَحْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ أَحْيَانًا لَا كَادَةَ عَمَلٍ خَاوِيَّةً لَا رُوحَ فِيهَا، وَأَنْظَرَ إِلَيْهِ أَحْيَانًا أُخْرَى كِتَابَ مُبِينٍ، أَفْرَأَ عَلَى صَفَحَاتِهِ فَلَسْفَةَ الْحَيَاةِ، "الْحَيَاةُ يَا بْنِي مَثَلُهَا كَمَثَلِ السَّلْمِ": كُلُّنَا يَجْتَهِدُ فِي صَعْوَدِهِ بِتَدْرِجٍ، فَمَنْ أَسَاءَ التَّقْدِيرِ وَأَخْطَأَ التَّدْبِيرِ، ظَلَّ فِي أَسْفَلِهِ أَوْ هُوَ مِنْ أَعْلَاهِهِ، وَكَمْ مِنْ شَقِيقٍ مُكْتَرِبٍ تَدْرَجَ بِصَبَرٍ فَأَضْحَى سَعِيدًا مُبِينًا، وَكَمْ مِنْ سَعِيدٍ تَهَاوِي فَأَمْسَى تَعِيسًا مُنْتَجَبًا، زَلَّتْ بِهِ الْقَدْمَ إِذَا بِهِ فِي مَسَاحِيقِ الرِّزْلِيَّةِ مَذْمُومًا مَذْحُورًا. كُلُّنَا يَا بْنِي مُقْبَلٍ عَلَى تَرْقِيِ السُّلْطَانِ الْحَيَاةِ، نَقْطَعُ مَشَوارِهَا الطَّوِيلِ بِتَدْرِجٍ، وَلَمَّا وَقَفْنَا كَانَ هَذَا الصَّغِيرِ يَقْلُبُ فِي وَجْهِ النَّاسِ نَظَرَاتٍ يَتِيمَةً تَرَدَّدَ عَلَى قَلْبِهِ آلَمًا لَا رَحْمَةً فِيهَا؛ لِيَسْ لَهَا ذَلِكَ الشَّكْلُ الْإِنْسَانيُّ الْمُحْبُوبُ الَّذِي لَا يَعْرِفُهُ مِنْ كُلِّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ: أَمَهُ وَأَبِيهِ. وَلَمَّا رَأَيْتُ الطَّفَالَيْنِ ضَمَّمَتْهُمَا إِلَيَّ، فَدَفَقْنَتْ كُلُّ آلامِهِمَا فِي بَعْضِ قَطْعِ الْحَلَوَاءِ، فَبَيَّنَتْ فَإِذَا امْرَأَ تَهْفَوْ كَذَاتِ الْجَنَاحَيْنِ، ثُمَّ أَخْذَتْنَا عَيْنَاهَا، تَبَدَّوْ مِنْ لَهْفَتِهَا لِوَلَدِيَّهَا كَانَمَا تُحَاوِلُ أَنْ تَخْتَطِفَهُمَا مِنْ بَعِيدٍ بِقَوْةِ قَلْبِهَا، وَمَا عَرَفْتُ أَنَّهَا هِيَ إِلَّا بِأَنَّ رُوحَهَا كَانَتْ مُنْتَشِرَةً عَلَى وَجْهِهَا، مَلْمُوسَةً فِي نَظَرَاتِهَا إِلَى الصَّغِيرَيْنِ، وَالْتَّحَمَّا بِهَا التَّحَامُ الْجُزُءِ بِكُلِّهِ، كَانَ تَارِيَخَهَا ابْتَداً فِي سَاعَةٍ مِنَ السَّاعَاتِ الْفَالِصَّةِ.